

لا يستفاد على الكمال إلا بهذه العبارة ، فهي إذاً أولى العبارات وأبلغها في هذا المعنى^(٨٦) .

وقد امتدت فكرة النظم عند الخطائى من اختيار الكلمة في موضع معين لتشمل وضع تركيب كامل ، والعلاقة الجامعة بينه وبين ما سبقه ولحقه في السياق ؛ ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه ﴾ [المدثر : ١٦ - ١٩] ؛ فقد سُبقت هذه الآيات مباشرة بقوله جل شأنه : ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره ﴾ ، وأعقبها قوله : ﴿ كلا بل نجون العاجلة ﴾ ، ولا تبدو صلة واضحة بين الآيات الأولى وبين كل مما سبقها أو لحقها . إلا أن الخطائى أوضح هذه الصلة ، وأشار إلى أن الآيات التى اشتملت على نهى الرسول بتحريك لسانه بالقرآن إنما هى استجابة لأمر عارض « دعت الحاجة إلى ذكره ، لم يجوز تركه ولا تأخيره عن وقته ، كقولك للرجل وأنت تحدّثه بحديث ، فيشتغل عنك ويقبل على شيء آخر : أُقِبل علىّ واسمع ما أقول ، وافهم عنى ، ونحو هذا من الكلام ، ثم تصل حديثك ، ولا تكون بذلك خارجاً عن الكلام الأول قاطعاً له ، وإنما تكون به مستوصلاً للكلام مستعيداً له . وكان رسول الله ﷺ أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، وكان إذا نزل الوحي وسمع القرآن ، حرك لسانه يستذكر به ، ف قيل له : تفهم ما يوحى إليك ، ولا تقبله بلسانك ، فإننا نجتمع لك ونحفظه عليك^(٨٧) . على أن الاعتداد بمثل هذا المثال في النظم عند الخطائى يوسع دائرته ، ويجعله ضرباً من الربط المعنوى بين فصول الكلام وفقراته . والأمر الذى نعيد التنبية إليه أن النظم الذى تحدث عنه الخطائى ليس هو وحده محور البلاغة ، وإنما هو أحد عناصر ثلاثة تقوم عليها ، كما ذكرنا من قبل ، والعنصران الآخران هما اللفظ ، والمعنى .

وقد كان من المتوقع - وقد تأخر الزمن بالباقلانى (ت ٤٠٣ هـ) - أن يتقدم بفكرة النظم خطوة أخرى على الطريق ، أو أن يقدم لها مفهوماً مختلفاً ، لاسيما أنه ما فتىء يشنى على نظم القرآن ، ويعلى من قدره في مواضع شتى من

(٨٦) انظر بيان إعجاز القرآن ص ٣٨ ، ٤٤ - ٤٥ .

(٨٧) بيان إعجاز القرآن ص ٥١ .